إقتصاديّات التربية والجدلية القائمة بين الرأسمال المالي والرأسمال البشري وتأثيرها على واقع التعليم وشروطه

د. تريز الهاشم طربيه
عميدة كلية التربية – الجامعة اللّبنانية

موضوع اقتصاديات التربية استراتيجي بامتياز. ولانه موضوع استراتيجي، ستتم مقاربته من خلال العلاقة الجدلية القائمة بين الراسمال البشري والرساميل الاخرى مع التركيز على الدور المحوري لاقتصاديات التربية وبالتحديد الدور المحوري لاقتصاد المعرفة في رسم مستقبل الشعوب.
من البديهي أن نقول إن موضوع اقتصاديات التربية يطال كل مكونات القطاع التربوي كما باقي القطاعات الاقتصادية والاجتماعية الاخرى ولا مجال في هذه المحاضرة ان نعالج الا بايجاز شديد بعضًا من جوانب هذا الموضوع.

1 تحديد مفهوم الاقتصاد والثروات والراسمال

عندما نسأل: ما هو علم الاقتصاد؟ تأتي الاجوبة، عمومًا، كالتالي: الاقتصاد هو علم له علاقة بالإدارة وبالمال والانتاج والاستهلاك والرساميل والمصارف والى ما هنالك من امور مالية ومادية. هي اجوبة صحيحة انما مجتزأة ولا تعطي كل ابعاد هذا العلم حقها.
هناك تحديد بسيط وموجز يختصر كل هذه الأبعاد: علم الاقتصاد هو علم الثروات. والثروات على أنواع: هناك الثروة الطبيعية والثروة المادية والثروة المالية والثروة البشرية. اقتصاديات التربية هي اقتصاديات الثروة البشرية وكل ما يدور في فلكها.

2 المكون الاقتصادي للتربية

يفرض موضوع اقتصاديات التربية مقاربة شاملة للتربية وللقطاع التربوي. مقاربة تضم الى جانب المكون الاقتصادي الصناعي، المكون التربوي، والمكون الانساني، والاخلاقي، والسياسي.

مفهوم إقتصاديات التربية يعني ان للتربية صفة وخصائص اقتصادية اي انها تخضع لكل العمليات الاقتصادية، وابرزها الانتاج، التوزيع، التبادل، الاستثمار، التوظيف، الاستهلاك، وغيرها من العمليات الاخرى

ونسأل: اين يتم انتاج الراسمال البشري؟ في اي مصنع؟ ومن ينتجه؟ ما هي وسائل الانتاج المستعملة؟

الاجوبة على هذه المقاربة الاقتصادية هي مقاربة تربوية. فالذي ينتج الراسمال البشري هو القطاع التربوي بكامل مكوناته.

من المدرسة ينطلق مشروع بناء هذا الراسمال. التلاميذ هم المادة الأولية التي تدخل الى مصنع التربية ليخرجوا منه رأسمالا بشريًا. من هنا تقوم اقتصاديات التربية على مبادئ اساسية هي أن: الثروة البشرية هي رأسمال هي الرأسمال الأهم بالمطلق المصادر الأساسية لتنمية وتطوير هذا الراسمال هي التربية والتعليم والتدريب. أما الذي يقوم بهذه الصناعة التحويلية الدقيقة، فهو المعلّم التربية والتعليم يزيدان من انتاجية الافراد ومن مستوى ادائهم في المجتمع لذلك يعتبر الانفاق على التربية والتعليم انفاقا استثماريا وليس مجرد انفاق استهلاكي.

3 أين يتشابه الراسمال البشري مع الراسمال المادي واين يختلف عنه ؟

للراسمال البشري بعض الخصائص نفسها التي تميز الرساميل الأخرى: يمكن مراكمته وزيادته من خلال زيادة سنوات الدراسة والتخصصات والتدريب، كما يمكن تبديده، يمكن استثماره، كما يمكن إهماله ويمكن اختلاسه وسرقته كما يحدث من خلال الهجرة المنظمة للادمغة وسيتم تناول هذا الموضوع في الجزء الثاني من هذه المحاضرة.

لكن هناك خصائص اخرى كثيرة تميز الراسمال البشري عن غيره من الرساميل المادية: هو الاستثمار الوحيد الذي لا ينفصل عن صاحبه، وهو الراسمال الوحيد الذي يمكن تطويره وتحسينه باستمرار ومدى الحياة (التعلم المستمر)، مدة انتاجه طويلة جدا بل هي الاطول بين كل العمليات الانتاجية غذ انه المنتج الوحيد الذي لا يمكن تقليص مدة انتاجه بل بالعكس تماما. كلما تطور العلم كلما طالت مدة انتاجه، تمامًا بعكس ما هو حاصل في انتاج باقي السلع والخدمات والرساميل، مدة حياته محدودة حتمًا. وكلفة انتاجه مرتفعة جدًا لجهة الوقت والمال المخصصين لهذا الانتاج ومدة استعماله محدودة جدا بسبب مدة الحياة المحدودة. وهو الراسمال الاكثر تعرضا للزوال (بسبب الوفاة) وللتلف وللتقادم السريع بسبب التطور العلمي فيصبح غير ذي جدوى.

4 مردود الراسمال البشري وأهميته

هناك معادلة ثابتة واكيدة نشهدها في كل دول العالم: ما من دولة متطورة تربويا ومتخلفة اقتصاديا واجتماعيا وما من دولة متخلفة تربويا ومتطورة اجتماعيا واقتصاديا.

للاستثمار في الراسمال البشري مردود متعدد الجوانب

هناك المردود الاقتصادي :

. تعليم الافراد يرفع من الدخل الفردي ومن الدخل القومي

. التعليم يسمح للافراد بتطوير قدراتهم المهنية ويمنحهم سهولة التحول والانتقال بين قطاعات الانتاج

. تعليم الافراد هو المحرك الاساسي في تحسين اعادة توزيع الثروات بين افراد المجتمع

له أيضًا مردود اجتماعي بالغ الاهمية:

. تعليم الأفراد يؤمن لهم الحراك الاجتماعي ويخترق قيود الطبقية الاجتماعية ويوفر لهم الوعي السياسي والقدرة على التغيير والتطور

. يساهم في احلال العدالة الاجتماعية ويساهم في ردم الهوة القائمة بين مختلف شرائح المجتمع. ومن هذا الباب ومن باب مبدأ حق التعليم للجميع تحقق اهداف التنمية المستدامة، ذلك على مستوى الفرد والجماعة

للاستثمار في التربية والتعليم مردود سياسي لانه في الواقع بالتربية نصنع الحرية ولا تتحرر الدول إلا بالتربية. فبالتأكيد ان من يريد ان يكون في المرتبة الاولى بين الشعوب بامكانه تحقيق ذلك.

وللوصول الى مرتبة الاوائل بين الدول هناك طريق واحدة فقط: هي طريق المدرسة، هي طريق التربية والتعليم والمواطنة والامثلة كثيرة امامنا.

من خلال التربية والتعليم والانتماء الوطني العميق ونظام تربوي متطور، تمكنت بعض دول شرق اسيا، وبظرف عقود قليلة من الزمن ، تمكنت من انتاج راسمال بشري كفوء ادخلها الى نادي الدول المنتجة للمعرفة فاخترقت بها المعسكرات الاقتصادية للدول الصناعية واقتحمتها فحسنت بذلك شروط التبادل معها في منظومة العلاقات الدولية، وقلبت المعادلة الاقتصادية والامنية لمصلحتها وفرضت شروطها، فتحررت بدون حرب وبدون معارك.

ليس من المستغرب ان تتصدر كوريا الجنوبية وسنغبورة واليابان المراتب العالمية الاولى في اختبارات TI MSSو PISA وهي اختبارات تربوية دولية تجري دوريا كل عدة سنوات يشارك فيها اكثر من مئة دولة يتم فيها قياس مستوى التحصيل التعلمي لتلاميذ المدارس في الرياضيات والعلوم والقراءة والتعبير الشفهي والكتابي

وتقيس هذه الاختبارات نسبة تحقق قدرات التلاميذ في المستويات العليا من التفكير النقدي والتحليل وحل المشكلات والابداع والنضج في الالتزام الاخلاقي والمواطنة.

عندما تصدر نتائج هذه الاختبارات تقوم القيامة ولا تقعد في الدول المشاركة ويسيل سيل التقارير والدراسات والقرارات الاصلاحية على مدى سنوات، وقد تتغير الحكومات نتيجة لذلك.

تعتبر معظم الدول أن تحسين مرتبتها في هذه الاختبارات هو هدف استراتيجي اساسي، وتضع كل امكانياتها لتحقيقه وتغير السياسات التربوية والهيكليات والمناهج وطرائق التعليم والوسائل والكتب وكل المنظومة المدرسية والجامعية من اجل تحويل مدارسها وجامعاتها الى مؤسسات تنتج راسمالا بشريا يساهم في انتاج المعرفة وفي بناء مجتمع المعرفة. من المؤكد انه بدون هذا الرأسمال لا تقوم قائمة للدول ولا تجد لنفسها مكانا بين الشعوب، مهما بلغ حجم ثرواتها الطبيعية والمادية، والامثلة كثيرة. إن اهم ما ينتجه الراسمال البشري هو المعرفة. من هذا الباب تطل اقتصاديات التربية على مجالات اقتصادية جديدة اهمها مجال اقتصاد المعرفة ومجال الاقتصاد الابداعي.

5 اقتصاد يات التربية واقتصاد المعرفة

دخل اقتصاد المعرفة من الباب العريض على اقتصاديات التربية وصدرها في المراتب الاولى. علم الاقتصاد الكلاسيكي يعتمد على ثلاثة عناصر اساسية للإنتاج هي الأرض، واليد العاملة ، ورأس المال

أما اقتصاد المعرفة فيضيف الى هذه العناصر عنصر الراسمال البشري الذي يبني مجتمع المعرفة ويكون هو المحرك الرئيسى للنمو الاقتصادي أكثر مما تفعلة اي من الثروات الطبيعية والمادية. فالمعرفة الفنية، والإبداع، والذكاء، والمعلومات والبرمجة والتكنولوجيا هي العناصر الاهم في الاقتصاد الجديد اقتصاد المعرفة.

ولإنتاج هذا الراسمال تقتطع الدول اكبر حصة من موازناتها وتوظف نسبة كبيرة من اليد العاملة في القطاع التربوي

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو التالي : هل المخزون العلمي لشعب ما هو ملك الافراد ام ملك للدولة ؟ بمعنى آخر، هل المخزون العلمي ملكية عامة ام ملكية خاصة؟ على من يفترض ان تقع مسؤولية تمويل التعليم؟ وعلى من يفترض ان تقع مسؤولية رسم الاستراتيجيات التربوية وتحديد الاهداف وبناء المناهج؟

طالما ان بناء الراسمال البشري هو بهذا القدر من الخطورة والدقة والاهمية وطالما ان طبيعة هذا البناء تحدد مصير الشعوب ومستقبلها، كيف يجوز ان نخضع القطاع التربوي ومدارسه قوانين السوق ولتجاذبات العرض والطلب ولشروط المصالح الخاصة التي تقوم على مبدأ الربح؟

قد يفاجئ البعض، لكن الدول الاكثر انفاقا على التعليم الرسمي هي الدول الصناعية ذات النظم الاقتصادية الاكثر راسمالية والاكثر ليبرالية. لقد حيدت هذه الدول نظمها التعليمية عن هذه التجاذبات وحققت فعليا الزامية التعليم ومجانية التعليم وجودة التعليم في آن معا لانها ادركت منذ زمن بعيد انه بدون هذه الثلاثية لا يمكن ان تبنى الاوطان ولا يمكن ان تبني المواطنة.

دور التربية والعلوم الانسانية في بناء اقتصاد المعرفة

هنا وجب الانتباه الشديد الى انه في الكثير من الادبيات والدراسات يتم حصر مفهوم اقتصاد المعرفة في العلوم البحتة وفي الصناعة والتكنولوجيا. ويتم اهمال محور العلوم الانسانية وكانها علوم من الدرجة الثانية يقتصر دورها على المناظرات الفكرية ليس إلا.

اذكّر هنا ان الثورة الصناعية والاقتصادية في اوروبا في القرن الثامن عشر اعد لها فلاسفة وادباء ومفكرو عصر التنوير humanistes .

المعرفة هي كيان متكامل لا يتجزأ وللعلوم الانسانية دور اساسي ومحوري في تكوينها وبنائها: المنظومة التربوية هي منظومة متكاملة بمعنى ان عليها ان تطال تكوين كل جوانب شخصية الافراد ومكوناتها. والعلوم الانسانية هي التي تحول المعلومات الى معرفة وبدون العلوم التربوية والعلوم الاجتماعية والتاريخ والجغرافيا والاداب واللغات والفنون نكون في صدد بناء مجتمع معلومات وليس مجتمع معرفة وثقافة. وتعتبر الدول المتقدمة انها في خطر ثقافي ووجودي اذا انخفضت نسبة طلاب الجامعات المنتسبين الى اختصاصات العلوم الانسانية الى

اقل من 30 % من مجموع طلابها. الخطر انه في هذا السباق الى مجتمع المعرفة فصلنا المعرفة عن الثقافة فتشوهتا.

إن سر نجاح الدول التي طورت اقتصاد المعرفة والتي بنت مجتمع المعرفة هو انها نجحت في التوظيف الاقتصادي المهني للعلوم الانسانية واعطتها مكانتها الواسعة الى جانب العلوم البحتة وادخلتها في منظومة انتاج المعرفة والاستثمار فيها.

6 ما بعد اقتصاد المعرفة : الاقتصاد الابداعي

في هذا السياق ومنذ اقل من عقد ظهر فرع جديد في علم الاقتصاد طور اقتصاد المعرفة هو الاقتصاد الابداعي Economie créative , Creative economy الاقتصاد الإبداعي- يشمل ما تسميه منظمة اليونسكو بالصناعات الابداعية وهي تضم كل النتاج الفني :الفنون التقليدية والتراثية، الموسيقى، كل الفنون الحديثة: الموسيقى، الفنون الجميلة، المنتجات السمعية البصرية، التصميم، وسائل الإعلام الحديثة، الفنون التعبيرية، النشر والفنون البصرية وغيرها وغيرها....

المخزون المعرفي لبلد ما او لشعب ما يضم كل المكتسبات والنتاج الحضاري والفكري والعلمي والثقافي والفني القديم والحديث الخاص ببلد ما او بشعب ما او بمجموعة ما.

ونظرا للأهمية المتزايدة لهذا القطاع وضعت الامم المتحدة سنة 2013 تقريرًا حول الاقتصاد الابداعي **Creative Economy Report** تحت عنوان **"توسيع نطاق مسارات التنمية المحلية"** تشاركت في نشره منظمة اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، من خلال مكتب الأمم المتحدة للتعاون بين بلدان الجنوب. وقد أُطلِق التقرير في إطار المؤتمر العام لليونسكو المنعقد في باريس سنة 2014 . إعتبر التقرير ان الاقتصاد الابداعي هو قوة محرّكة اساسية تساهم إسهاما ضخما في عملية التنمية المستدامة. لقد كشف التقرير أن قطاع

الاقتصاد الابداعي هو القطاع الأكثر سرعة في النمو في عالم الاقتصاد، كما انه يتمتع بقدرة عالية على توليد الدخل، وخلق الوظائف وزيادة الصادرات.
اما الاهم من كل ذلك ان الاقتصاد الابداعي يولد وينتج قيمة مضافة كبرى غير نقدية تُسهم في التنمية الاجتماعية الشاملة وبناء المواطنة والحوار والتفاهم بين الشعوب.

تقول مديرة برنامج الأمم المتحدة الإنمائي: "إن الثقافة هي القوة التي تحركّ التنمية البشرية المستدامة وتمكّن من تحقيقها في آن. وهي تُنتِج أفكارا و تكنولوجيات إبداعية جديدة تمكّن الافراد والمجتمعات من الاضطلاع بمسؤولية تحقيق تنميتهم الخاصة." ويستند التقرير إلى أمثلة تظهر كيف أنّ الاقتصاد الإبداعي متنوع وابتكاري ويعزّز التنوع والتنمية على الصعيد المحلي في البلدان الصناعية كما في البلدان النامية.. فالصناعات الثقافية والإبداعية في الأرجنتين، على سبيل المثال، تستخدم حوالى 300000 شخص وتمثّل 3.5 في المائة من الناتج المحلي الاجمالي وفي مدينة بنكوك، وحدها في تايلند، هناك 20000 مؤسسة تجارية معنية بالموضة من دون سواها، هذا بالاضافة الى الاعداد الكبيرة من المصممين الشباب اللذين يعملون لحسابهم ويعرض التقرير 10 توصيات أساسية بهدف إقامة مسارات ثقافية جديدة للتنمية نذكر منها:

1. الإقرار بأنّه، بالإضافة إلى فوائده الاقتصادية، يولّد الاقتصاد الإبداعي قيمة غير نقدية تُسهم إسهاما كبيرا في تحقيق تنمية مستدامة محورها الانسان.
2. جعل الثقافة محرّكا وعاملا ميسرا لعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية.
3. الاستثمار في الإبداع والابتكار وتنمية الاقتصاد الإبداعي المستدام
4. الاستثمار في بناء القدرات المحلية لتمكين المبدعين وأصحاب الأعمال الثقافية، والمسؤولين الحكوميين وشركات القطاع الخاص.

هنا يبرز الدور الاساسي للتربية ولاقتصاديات التربية

لقد نشرت المفوضية الأوروبية في اطار معاهدة لشبونة (2007) كتاب أخضر خاص بالاقتصاد الابداعي ورد فيه أن الاقتصاد الإبداعي يمثل 2.6 ٪ من الناتج المحلي الإجمالي الأوروبي. واعتبرت المفوضية الاوروبية ان ركائز الاقتصاد الابداعي هي التربية والتدريب والتعلم مدى الحياة والانشطة البحثية بهدف بناء مجتمع المعرفة.

منافع الاقتصاد الإبداعي ليست فقط مصلحة اقتصادية بل هي أيضا وسيلة لاعادة تكوين المجتمعات على اسس اخلاقية وثقافية جديدة.

وقد أنشات اليونسكو منذ عام 2004 منصة لشبكة عالمية من "المدن الخلاقة للمبادرات المحلية" في جميع أنحاء العالم. « Plateforme mondiale pour l'initiative locale » وهي تتخصص في مجال الاقتصاد الإبداعي. وتضم هذه الشبكة حوالي ثلاثين مدينة منها: إدنبورغ - للأدب، وإشبيلية – للموسيقى، وأسوان – للصناعات التقليدية و الفن الشعبي، وبرلين و سانت إتيان - للتصميم، وليون - للفن الرقمي...

هدف هذه الشبكة واضح: "تحفيز استخدام الإمكانات الإبداعية للمجتمعات المحلية لتعزيز التنوع الثقافي وحمايته"

اقتصاديات التربية و الفن تحول وجهة العولمة لانها كفيلة بارساء ثقافة مجتمعية جديدة تقوم على تفعيل دور المجتمعات المحلية بدلا من تهميشها فتحترم وتحمي وتبرز وتفعل خصوصياتها الابداعية من خلال العمل الفريقي التشاركي والتعاوني.

الاقتصاد الإبداعي هو باني الاوطان وباني السلام لانه عابر للفنون وللعلوم وللتقنيات وللمجتمعات وللحضارات. التربية اليوم امام مفترق طريقين، اما ان نختار التربية على ظلمة الظلاميين او نختار التربية الابداعية الحرة الخلاقة لانه ما من تربية وسطية بينهما.

تيريز الهاشم *Thérèse El Hachem*

خبيرة دولية في الاقتصاد والتخطيط التربوي، أستاذة إقتصاديات التربية في الجامعة اللبنانية، مديرة سابقة للفرع الثاني في كلية التربية في الجامعة اللبنانية وعميدة الكلية منذ عام 2014. لها العديد من الدراسات والأبحاث المنشورة. ساهمت في العديد من برامج الأبحاث ومنها مشروع دعم خدمات التوظيف العامة لمؤسسة البحوث والاستشارات اللبنانية ومنظمة العمل الدولية.

Thérèse El Hachem. Experte internationale en économie et en planification de l'éducation. Professeure d'économie de l'éducation à l'Université libanaise, anciennement directrice de la deuxième branche de la Faculté de Pédagogie à l'Université libanaise et doyenne depuis 2014. Elle a publié de nombreuses études, contribué à de nombreux programmes de recherche, dont le soutien des services publics de l'emploi de la Fondation Libanaise pour la Recherche et l'Organisation Mondiale du Travail.